

تاريخ القبول: 2024/10/27

تاريخ الإرسال: 2024/03/07

تاريخ النشر: 2024/10/30

تشكل السرد الروائي في العالم الافتراضي: قراءة في تجربة "ليليات
رمادة" لواسيني الأعرج

**Shaping the novel narrative in the virtual world:
A reading of the experience of "Ramada Nights" by
Wacini Al-Araj**

شينة نصيرة¹، قسم اللغة والأدب العربي، معهد الآداب واللغات
المركز الجامعي بركة. طريق أمموكال، بركة، 05001، (الجزائر)
¹nassira.china@cu-barika.dz

الملخص:

أدى اتساع البؤرة التقنية واحتكاك الأدب بالوسائط التكنولوجية إلى ابتكار أشكال من النصوص المترابطة التي اتسمت بطبيعة خاصة ومميزات جديدة، أحدثت تغييرا جذريا في مفهوم النص، الذي تحرر من سلطة الإنتاج الورقي المطبوع، وتحول إلى فضاء تشاركي بين المبدع والمتلقي. وتعد الرواية التفاعلية أحد أبرز أشكال الأدب الرقمي، غير أن التجربة العربية في التفاعل مع الأدب الرقمي ما تزال في بدايتها، وتبقى في حاجة إلى المزيد من تراكم النصوص والتجارب الإبداعية.

انطلاقا من هذا الطرح، تسعى هذه الورقة البحثية إلى الوقوف على تجربة "ليليات رمادة" لواسيني الأعرج الرائدة في كتابة الرواية التفاعلية، وهي واحدة من بواكير الأعمال الأدبية التي كتبت عن جائحة كورونا، من خلال تسليط الضوء على جماليات هذا النص وخصوصيات هذه التجربة التي جسدت انفتاح الخطاب الروائي

الجزائري على مظاهر الواقع الإلكتروني المستحدثة، واستجابته للتحويلات الكبرى في المنجز الفني السردى بكل آلياته اللغوية والجمالية والتقنية.

الكلمات المفتاحية: الرواية التفاعلية، الأدب الرقمي، القارئ الضمني، النص المترابط، الورشة الثقافية، التأويل.

Abstract: The expansion of technological focal points and the interaction of literature with technological media have led to the invention of interconnected text forms characterized by their own nature and new features, bringing about a radical change in the concept of the text. It has freed itself from the authority of traditional print production and transformed into a participatory space between the creator and the recipient. Interactive novels are considered one of the most prominent forms of digital literature. However, the Arab experience in interacting with digital literature is still in its early stages, and it still requires more accumulation of texts and creative experiments.

Based on this premise, this research paper seeks to explore the pioneering experience of "Gray Nights" by Wassini Al-Araj in writing interactive novels. It is one of the first literary works written about the COVID-19 pandemic, shedding light on the aesthetics of this text and the characteristics of this experience that embodied the openness of Algerian narrative discourse to the emerging aspects of electronic reality and its response to major transformations in the artistic narrative achievement with all its linguistic, aesthetic, and technical mechanisms.

Keywords: Interactive novel, digital literature, implicit reader, interconnected text, cultural workshop, interpretation.

المؤلف المرسل: شينة نصيرة NASSIRA.CHINA@CU-BARIKA.DZ

1. مقدمة:

يشهد العالم مع إطلالة الألفية الثالثة منعرجات وتطورات مذهلة نجمت عن تحول المجتمعات من السمة الصناعية إلى السمة الذكية المعلوماتية، وألقى التطور التكنولوجي المشهود ظلاله على جميع القطاعات والحقول الإنسانية، خاصة الاجتماعية والثقافية منها، فانبثقت أشكالاً لا حصر لها من الترابط وأوجه الاتصال مع الحياة العامة بجميع فروعها واختصاصاتها، وعالم لا متناهٍ من الوشائج الاجتماعية بين ذواتٍ تؤثر وتتأثر، وتتلاقى وتتعايش وتتفاعل في فضاء افتراضي هائل لا محدود.

ولما كان الأدب مرآة المجتمع، وتصويراً لمناخه ونظمه الاجتماعية ومبادئه الفكرية والأخلاقية، كان من الطبيعي أن يتأثر الإبداع الأدبي بهذه الطفرة التقنية التي أذهلت الإنسان المعاصر وقلبت حياته ظهراً على عقب، فكان لظهور الأدب الرقمي وقع خاص على الساحة الأدبية والنقدية، وهو الذي جعل الكاتب والمتلقي معا إزاء بُعد ثالث رقمي مبهّر، متأرجحين فيه بين البعد الواقعي الملموس والخيالي الافتراضي، بخلق فضاءات افتراضية فسحت المجال لصيغة تواصل عمومية تشاركية للأذواق والأفكار وحتى المشاعر، سرّعت في بناء هوية أدبية جديدة تولدت في ظلها أشكال تعبيرية وأنماط أدبية رقمية رافقت ذلك الزخم التقني الهائل، على غرار الرواية التفاعلية التي سعى كتابها من خلال استثمار الوسائط الرقمية والروافد الرمزية والأيقونية إلى إبداع شكل سردي جديد متطور، يفسح للمتلقي مساحة للتفاعل، ويشكل للمبدع منفذاً وأسلوباً حداثياً للتعبير مواكبا لمقتضيات العصر.

ولقد مثلت رواية "إلييات رمادة" للروائي الجزائري "واسيني الأعرج" تجربة رائدة في مجال الرواية التفاعلية، وإضافة نوعية إلى المشروع الروائي المتجدد لهذا الكاتب الذي تميزت مسيرته الإبداعية بالثراء المعرفي والسردية والجمالي، و"إلييات رمادة" هي نص انبثق من رحم معاناة البشرية من وباء كورونا الذي هيمن على العالم،

ووضع الإنسان أمام سؤال الوجود المقلق والمصير المجهول، وهي (الرواية) تعبير جمالي عن قلق الروح وصراع الإنسان المعاصر مع تحديات ومفارقات الحياة الراهنة، إنها بارقة أمل وسط ظلمة الواقع، وتحدّ وقف في وجه الفناء، وبصمة وجدانية عميقة تؤثّق رؤى البشرية حول ما أَلَمَ بها في محنة كوفيد19.

2. مفهوم الرواية التفاعلية:

قبل توصيف الرواية التفاعلية وخصوصياتها، يتعين علينا فهم البيئة التفاعلية وكذا الافتراضية لفهم الفرق بين الرقمية كنظام تعريفي لوغاريتمي ذي الطابع الخوارزمي، وبين الأدب التفاعلي المطور لأجناس أدبية رقمية بفضل خاصية التفاعلية التوليدية.

فالأدب الرقمي هو الأدب الذي يقدم على شاشة الحاسوب، التي تعتمد الصيغة الرقمية الثنائية (1.0) في التعامل مع النصوص أي كانت طبيعتها، أي أنه ذو طابع لوغاريتمي منطقي يتعامل بنسق عددي ثنائي فقط، فلو غيرنا ببرنامج معين تراتبية الأعداد لنص معين، لتغير كلياً من حيث انتظام الحروف والكلمات والجمل.¹ أما الأدب التفاعلي، فهو أدب يوظف معطيات التكنولوجيا الحديثة خاصة نظام النص المتفرع (hypertext)، في تقديم جنس أدبي يجمع بين الأدبية والإلكترونية عبر الوسيط الإلكتروني، بما يكسب المتلقي صفة التفاعلية من خلال الاستزادة أو التعديل على صعيد المساحة في التفاعل مع النص الأصلي، ويشمل: القصيدة التفاعلية، المسرحية التفاعلية والرواية التفاعلية. ومن صفات الأدب التفاعلي:

نص مفتوح بلا حدود زمكانية - يمنح فرصة للإحساس بالتملك لدى المتلقي - لا يعترف الأدب التفاعلي بالمبدع الوحيد؛ إذ يشترك جميع المتلقين والمستخدمين للنص التفاعلي في إبداعه، ويمتلكون الحق في الإضافة والتعديل في النص

الأصلي- البدايات في هذا الأدب غير محددة، إذ يمكن للمتلقي أن يختار نقطة البدء التي يرغب في دخول النص عبرها، ويؤدي الاختلاف في اختيار نقطة البدء حتما إلى الاختلاف في صيرورة الأحداث من متلق لآخر، ومن ثمة تتعدد النهايات. وهو ما يسمح لكل متلق بأن يخرج من النص برؤية مختلفة، الأمر الذي يوسع أفق النص ويفتح باب التأويل، ويضمن لذلك النص البقاء والاستمرارية.²

بذلك، يتحقق الأدب الرقمي حين يحافظ النص على سماته الورقية، ولكنه يصبح قابلا لمتطلبات الشاشة والانتقال بين صفحاتها، بينما يستند الأدب التفاعلي إلى لغة التعبير الجمالي، وبهذه الخاصية تسقط عليه مجمل الخطابات الأدبية التي يسير في نطاقها، وإلى جانب اللغة يحتاج إلى العلامات غير اللغوية من صورة وصوت وحركة وترابط نصي.³ وبهذا يصبح شرط الأدب الرقمي التفاعلي مرتبنا بالمساحة التي يتركها الكاتب الذي أصبح مبدعا، يتقن التأليف والتوليف بين عنصري الكتابة والمؤثرات الصوتية المرئية، مفسحا المجال أمام قرائه للانخراط والمشاركة في إنتاج النص، ومن ثمّ قراءته، فيصبح بحق نصا أدبيا مفتوحا للبناء والتأويل.⁴

فالأدب الرقمي إذن هو أدب ذو منزع رياضي لوغاريتمي، ولأن الوظيفة التواصلية هي من أهم وظائف النص الأدبي، يضحى الأدب التفاعلي بوصفه تجليا للتقنية التكنولوجية المعاصرة- امتدادا طبيعيا للأدب الكلاسيكي وتكريسا لوظيفته التواصلية التي تطورت فأضحت تفاعلية تشاركية، إذ يتيح فرصة الحوار والتفاعل الحي المباشر الذي تتعدد صوره وأنماطه بتعدد الصور التي يقدم بها النص الأدبي للمتلقي.

هكذا تغدو الرواية التفاعلية «نمطا من الفن الروائي، يقوم فيه المؤلف بتوظيف الخصائص التي تتيحها تقنية النص المتفرع، والتي تسمح بالربط بين

النصوص سواء أكانت نصا كتابيا، أم صورا ثابتة أو متحركة، أم أصواتا حية... باستخدام وصلات تكون دائما باللون الأزرق، وتقود إلى ما يمكن اعتباره هامشا على المتن».⁵

تختلف الرواية التفاعلية عن الرواية الورقية في مسارها العمودي اللاخطي؛ فهي لا تتبع المسار الخطي الأحادي الاتجاه الذي عهدناه في الرواية التقليدية، حيث يستقبل المتلقي المحتوى في النص الروائي التفاعلي في طبقات مختلفة مؤسّسة للمعنى في كل مستوى، ومتراصة فيما بينها، فهو بذلك يغوص في النص عموديا متلقيا اللغة والعلامات الأيقونية غير اللغوية من ألوان ورسوم وصور معا وبشكل متصل، فهو لا يحاور في النص مستوى دون آخر بشكل مستقل، بل يتلقاها معا ويتفاعل معها كلية.

تتقاطع الرواية التفاعلية مع الرواية الورقية في محافظتها على العناصر السردية الأساسية في العمل الروائي؛ كالزمان والمكان والأحداث والشخص والحوار، وبذلك يمكن اعتبار الرواية التفاعلية بوصفها امتدادا للرواية التقليدية، إضافة حقيقية وجمالية إلى البناء الفني للرواية في مسار تطورها، ذلك أن التجديد لا يقف على الموضوعات أو تقنيات السرد وحدها، بل يتجلى كذلك في أسلوب الطرح وطريقة التقديم، إذ تعزز الوسائط الرقمية عنصر التشويق في العمل الروائي، وتختزل الصورة البصرية معاني ودلالات تعجز اللغة أحيانا عن ترجمتها بالكلمات.

ترتكز الرواية التفاعلية على مبدأ التفاعل (**L'Interaction**) فهو دعامة الأدب الجديد، وهو بصورة عامة من أساسيات التواصل الإنساني، كما أنه يمثل ممارسة اجتماعية تعبر عن الاستجابة المتبادلة بين أفراد الجماعة اللغوية الواحدة، وقد اهتم الباحث سعيد يقطين بمفهوم التفاعلية في كتابه "من النص إلى النص المترابط: مدخل إلى جماليات الأدب التفاعلي"، منطلقا من أن التفاعل يكون إما بين علامات النص الداخلية والخارجية، أو بين منتج النص وقارئه،⁶ فثمة تفاعل إبداعي يتمثل في إضافات وتعديلات من شأنها أن تسهم في توليد نص جديد، لأن الرواية

في ارتباطها بالوسيط التكنولوجي تعد إبداعا وأداة إبداع وفضاء إبداع في الوقت نفسه.

يقودنا ما سبق إلى القول إن الرواية التفاعلية هي فرع من فروع الرواية الرقمية، وهي نسق سردي تفاعلي مواكب للتطور التكنولوجي المعاصر، يتجسد كبناء فني يستثمر التقنيات الحاسوبية والوسائط الرقمية المتاحة في تقديم مثله للمتلقي، ويعتمد هذا الشكل الروائي السمة التفاعلية كركيزة أساسية في بنائه، وذلك راجع للعلاقة الحوارية القائمة بين المؤلف الرقمي والمتلقي الرقمي، بالاستعانة بالتقنية الرقمية والروابط التفاعلية والأيقونات وكل العلامات والأنساق الدلالية التي تسهم في تفعيل شكل من التفاعل التواصلي بين هذين الطرفين، فلا يكتفي القارئ بالتلقي بل تفتح له الرواية التفاعلية المجال ليغدو روائيا مشاركا للكاتب الأصلي في إنتاج النص.

3. وقفة عند رواية "ليليات رمادة":

تنتهي رواية "ليليات رمادة" إلى أدب العزلة أو ما يعرف بأدب الجائحة، إذ عمد الأعرج عبر صفحات الفيسبوك إلى تصوير ما عايشته البشرية من مخاوف ومعاناة وعزلة، والتعبير عن تلك الهواجس والمشاعر القلقة المترتبة إبان تفشي وباء كورونا وفي أوج فتكه بالناس، إذ تعد الرواية من بواكير الأعمال الأدبية التي كتبت عن جائحة كورونا، حاول الأعرج من خلالها حقن جرعات من الأمل في نفوس القراء، والترفيه عنهم بإلهائهم عن عزلتهم وتحويل تركيزهم على مشاهد الحزن واليأس والفناء إلى شغف التأمل الفلسفي في الوجود، وفي الغاية من الحياة نفسها بنتاقضاتها ومفارقاتها، والاشتغال بتأويل تفاصيل الرواية وفك شيفرات رسائل الكاتب المخبوءة فيها.

تتطلق أحداث الرواية مكانيا من الجزائر، وتفتح على أزمنة متعددة بين تداخل وانفصال، ومنها زمن الوباء، وزمن العشرية السوداء، وزمن الفترة الراهنة المضطربة سياسيا واجتماعيا. رمز الكاتب للجزائر بمدينة "كوفيلاند" فهي مدينة بمثابة وطن على حد وصفه، وهي كذلك مدينة الأوبئة، فقد قاومت أنواعا شتى من

الأبوة على مر العصور آخرها وباء كوفيد19، في هذه المدينة المتخيلة تعيش الطيبية "رمادة" (راما) قصة حب مع الموسيقار العالمي "شادي"، لكنها تتزوج زواجا تقليديا من كريم العصبي صعب المراس، تمضي رمادة في علاقتها بشادي في مغامرة مجنونة تغير نظرتها للحياة وفهمها للسعادة. وهي على حافة الطلاق من زوجها، تنقلب أحداث السرد حين تكتشف راما حملها وتُفاجأ بإصابة شادي بالوباء.

في خضم هذه الظروف العصيبة ينقطع التواصل بين رمادة وشادي نتيجة الجائحة، ويصبح الحب خيط النجاة الرفيع الذي يتمسكان به للتغلب على الوباء والعزلة (الحجر المنزلي)، فتعكف البطلة على كتابة رسائل لحبيبها على شكل ليليات شارك بها الروائي قراءه خلال فترة الحجر المنزلي، فكانت تكتب له في كل ليلة رسالة رغم يقينها بعدم قدرته على قراءتها جرّاء وهنه الشديد، لكنها تتمسك بالحكي كوسيلة للهروب من أحزانها ومخاوفها، وكنوع من التواصل الوجداني بينها وبين شادي المبعد عنها، لقد جسدت تلك الرسائل طرف الأمل الذي تشبثت به البطلة حتى وإن لم تتلق ردودا على مكوناتها المبعثرة عبر السطور.

الرواية ليست قصة امرأة عانت من قسوة الأب وظلم الزوج وجفوة الحياة فقط، إذ يسترسل واسيني الأعرج على لسان راما وعبر ليلياتها، في رواية معاناة المجتمع الجزائري/كوفيلاند من مختلف مظاهر الفساد التي نخرت جسده طيلة عقود، ويصور للقارئ الصراعات الاجتماعية والأسرية التي طفت إلى السطح تحت ضغط الحجر الإجمالي. فكان ينتقل بين شخصياته فيحكي لنا في كل حلقة قصة تتعلق بإحدى شخصيات الرواية، ليغدو نصها في النهاية مجموعة قصص مختلفة وأحداث متنوعة تتم روايتها على شكل ليليات عبر رسائل البطلة "رمادة".

4. ليليات رمادة كتجربة تفاعلية (تمظهر البعد التفاعلي في الرواية):

4.1 ورشة الكتابة انطلاقة للتجربة:

حين قرر واسيني أن يشرك قراءه في أجزاء روايته "ليليات رمادة"، أخذ ينشر فصلين منها يومي الخميس والأحد من كل أسبوع على صفحته على "فيسبوك"، ومع

نشر الفصل الأول ومشاركته القراء تفاجأ من تفاعلهم الكبير مع النص المنشور وهو ما فاق حدود توقعاته، ما أعطاه دفعا لمواصلة التجربة، والتماذي في المغامرة.

يقول معلقا على أثر تفاعل الجمهور في صيرورة إبداع الرواية: «ردة الفعل هذه أعطتني إحساساً بأنني لست الوحيد؛ وهو ما فتّت داخلي مشاعر الوحدة. بدأت أفكر في أن يتحوّل الأمر إلى ورشة كتابة، حيث سبق لي أن دشّنت العديد من ورش الكتابة في العالم العربي. وبالفعل، استمرّت هذه الورشة طوال فترة نشري لأجزاء الرواية. والواقع أنها كانت واحدة من أفضل الورشات التي دشّنتها، لأنها شملت الآلاف من الناس بدون قيد أو شرط، حيث وضعت على عاتقي التزاماً بأن أردّ على كافّة التعليقات دون استثناء».⁷

لقد مثلت هذه الرواية مغامرة بلا حساب مسبق خاضها الكاتب كتجربة جريئة لم يكن يعرف نهايتها، فقرر أن يختبر ردة فعل الجمهور تدريجياً لمعرفة كيف سيكون تجاوبه مع نصوص الرواية الأولية، وحين أعرب القراء عن إعجابهم بتفاصيل الأجزاء الأولى بعد أن نشرها واسيني على صفحته الخاصة خلال الأشهر الأولى من الجائحة، كان تفاعلهم المفاجئ مع تلك الفصول الأولية وسجالهم اليومي قوة دافعة شجعت الروائي على متابعة التأليف والنشر، فكان يكتب في كل أسبوع فصلين وينشرهما ويجيب على انشغالات وآراء المتابعين حولهما، في أكبر ورشة استمرت مع القراء افتراضياً في شكل حلقات على مدى خمسة أشهر، فيها الكثير من التقارب والصدق في تقاسم الرؤى والأفكار والذوق الفني، فوثق من خلالها -ونزولا عند رغبة القراء واستجابة لمطالبتهم بالمزيد- مشاعر حقيقية عن أزمة واقعية في لقاءات افتراضية، مثلت أسهل وأقرب وأسرع السبل للقاء الجماهير والتعاطي معهم.

4.2 مشاركة اللعبة السردية القارئ كاتبا):

اعتمد الكاتب واسيني الأعرج على نتائج تفاعل افتراضي مع قرائه ومتابعيه ليسرد تفاصيل الصراعات المختلفة الناجمة عن انتشار وباء كوفيد19، وبقية الصراعات السياسية في مدينة خيالية مستوحاة من الأحداث الواقعية في مختلف دول العالم، خاصة منها دول العالم الثالث، وكيف حالت تلك الصراعات بين راماً وشادي

وتداخلت الوقائع وتضاربت المصالح، وتعانقت المشاعر الإنسانية التي كانت تتأجج تارة وتخبو أخرى حتى انطفأت بطريقة تراجيدية في آخر المطاف.

في بداية التجربة لم تكن فصول الرواية منجزة بعد، فقد كان زمن كتابتها هو زمن نشرها؛ يقول واسيني: «الأمر كان يشبه "العبة"، لكنها "عبة جادة"، وليست سهلة، بها كثير من الالتزام الأخلاقي تجاه القراء، ومزيد من الإثارة في أثناء ممارسة الكتابة تحت الضغط. نصحني بعض الأصدقاء والروائيين بألا أضحي بالرواية بنشرها على (فيسبوك)، لكنني كنت بحاجة ماسة إلى هذه الشراكة الشعورية؛ بحاجة إلى أن أسمع آراءهم، وأشعر بأن هذا المرض غير موجود، وبأننا نتكلم على شيء وُلد في الماضي، وبأننا في لحظة سلام آنية».⁸ هكذا شكلت الكتابة استجابة لضرورة ملحة للتواصل ولحاجة البشر للقاء والتفاعل، في ظل العزلة التي فرضتها الأزمة (كوفيد19).

لا تتقيد عملية الكتابة بشرط زمني لالتقاط الحقائق والتعبير عنها إبداعياً؛ إذ نجد من المبدعين من يكتب خلال اللحظة المعيشة أي بين قوسي الأزمة، فينقل تفاصيلها في وقتها وهي لا تزال قيد التحول الزمني، وهناك من يفضل استقرار الأمور وهدوءها، فيتترك مسافة من الأحداث ويتأني حتى يخرج منها ليستوعب تفاصيلها ويفهم حيثياتها أكثر ثم يترجمها بطريقة جمالية.

يبين هذين المستويين من الكتابة اختار واسيني المستوى الأول، أن يوثق اللحظة الراهنة ويبذل في عز المعاناة وفي أوج المحنة، لقد فضل أن يكتب تحت الضغط ويخضع لفلسفة الوفاء ومنطقه الطاعي ليستثمر زمن الجائحة ويخلق منه لحظات مشتركة وتجربة تواصلية بينه وبين الجمهور.

قام واسيني بنشر الرواية بشكل دوري على مدى خمسة أشهر بلا توقف ولا كلل،⁹ تمت خلالها مناقشة فصول الرواية جميعها بين الكاتب وقرائه، وهم من جميع الفئات والأعمار بمختلف مستوياتهم الثقافية، من قراء عاديين وأكاديميين ونقاد، ما اضطر الكاتب للتفرغ من أجل الرد على تعليقاتهم الكثيرة جداً، فلم يهمل منها أي

تعليق مهما كان مصدره، مخاطبا كلا حسب مستواه الثقافي بلغته التي يفهمها دون إقصاء أو استثناء، ويمكن لمن يريد الاطلاع عليها الرجوع لصفحة المؤلف.

وكانت التجربة قد بدأت بهدوء ثم ازداد التفاعل وتنامى زخم المشاركة والتعليقات. وكان الرهان بالنسبة لواسيني هو الوصول إلى فعالية قرائية لمتابعين دائمين، كل بحسب ذوقه الفني وقدراته المعرفية، فقام مجموعة من النقاد بتأطير هذه القراءة، وكان كل واحد يسهم في تنمية هذا الفعل الجديد في الواقع الافتراضي، ثم تطور الأمر على مرأى من الروائي نفسه، إلى أن شكل ظاهرة مميزة لتجربة الكتابة الروائية ومتابعتها بشكل دوري.

ولعل ما أعطى هذه التجربة عمقا هو حرص القراء على الإخلاص والجدة والإتقان، وما زادها قوة وتأثيرا هو التزام الروائي بالرد على كل المتابعات، وبالحرص والعناية نفسيهما، ولعل هذه المحاور بين المبدع والمتابعين هي ما أسهم في وجود هذا القارئ الافتراضي، الذي أسهم بطريقة أو بأخرى في إنتاج النص وفي إنتاج دوائر المعنى وتجليات الدلالة من حوله، وجعل هذا القارئ الافتراضي مشاركا في النص.¹⁰

لقد أفرزت الجائحة كتابة جديدة لدى واسيني، لم يجربها هو قبلا ولم يعهدها جمهوره في كتاباته، لذلك يمكن وضع النقاشات التي كانت تدور حول الرواية من خلال صفحة الفايسبوك في خانة التجريب الروائي، فالقارئ الافتراضي في الرواية التفاعلية هو قارئ متفوق، يرافق المبدع في عملية الكتابة ويتدخل في العملية الإبداعية حسب ذوقه حتى كأن الروائي يكتب له ومن أجله، فيتجاوزان ويتجادلان ويقترح حذف هذا أو تعديل هذا أو زيادة كذا، في جو استثنائي من التفاعل والتدخل بين الأدواق والآراء فكانت ورشة الكتابة التي تبناها واسيني ناجحة ومثمرة إلى أبعد حد.

لعل أكثر ما ميز هذه التجربة الفنية الفريدة أن واسيني الأعرج كان يكتب وينشر في الوقت نفسه، لذلك لم يكن يعلم إلى أي نتيجة يمكن أن ينتهي إليها النص أو حتى تفاصيل الأحداث والوقائع. كان الإطار العام للرواية حاضرا في ذهنه، ينسج

داخله ما تولد في عقله لحظة بلحظة، ثم يضعه بين يدي القراء، وقد حاول الكاتب خلال ذلك الالتزام بهذا الإطار، لكن هذا الأخير كثيرا ما كان ينكسر بسبب دينامية السرد التي تفرض أحيانا نمطا آخر وأحداثا أخرى، كانت الرواية أشبه بـ"لحظة تولد فكري" يصعب محاصرتها، لأن الجمهور شارك المؤلف ميلاد الأحداث أولا بأول.¹¹

لقد وجد واسيني نفسه خلال هذه التجربة أمام قارئين: القارئ الضمني والقارئ الافتراضي، وهما كان الجهد مضاعفا لمراوغة كليهما بتقنيات تراهن على أفق الانتظار لدى كليهما، وتسعى إلى الجمال والمتعة بين خيبة الأمل في مخرجات الحكاية وحسن التوقع لأحداثها، فإذا كان القارئ الضمني غير معروف فإن القارئ الافتراضي هو شخصية معروفة، حتى وإن أخذ اسما مستعارا فهو يلتزم بعقد القراءة والمتابعة والتعقيب، وهو مرتبط عاطفيا بميثاق متابعة الرواية، والمبدع نفسه أصبح يعرف أولئك القراء الافتراضيين،¹² وكشف خط توجههم الفني والجمالي، ومن ثم فقد تضاعف جهد الكاتب في الرد على كل المتابعين الافتراضيين. وهنا أحرز نجاحه المنشود في التعرف على قرائه عن كثب، والاطلاع على ميولهم وتوجههم وانطباعاتهم حول العمل الروائي، بل وفي استمالة قراء جدد بشخصيات واقعية وأسماء افتراضية.

ومن التفاصيل الإبداعية التي اجتهد الكاتب في إضافتها في "ليليات رمادة" اشتغاله على الفاتحة النصية، أو ما يمكن أن ندعوه بالإعلان الافتراضي؛ فقد اختار واسيني فاتحة نصية في كل حلقة من حلقات ليلياته، وكأنه يعرض لنا فكرة عن الرواية، أو موجزا عما سيحدث، ولعل ما يؤكد ذلك هو وجود هذه الفاتحة داخل النص مرة أخرى مترابطة مع الأحداث التي سردها أثناء تلك الحلقة.

وقد «ركز الروائي في هذه الفواتح النصية على المقاطع التي تبرز شخصية البطلة/رمادة، فيرفق مقولة من مقولاتها مركزا على علاقتها بشادي، وعلى الجانب العاطفي لتبرز فلسفة الحب، والحياة داخل دائرة الموت، والكره، والعداء. كما نجد الكاتب حريصا على نشر مقتطف منها قبل عرضها بساعات، ليضع المتلقي محل التساؤلات والافتراضات المسبقة والتي تجعله يفكر بالأحداث، ما يفسح المجال

لعنصر الدهشة والتشويق أن يطغى على النص الروائي. ويمكن أن نصلح على هذا بالإعلان الافتراضي».¹³ وهو ما يصب في خانة التجريب ويسم نص الرواية بالاختلاف والتميز.

عندما بادر واسيني إلى نشر روايته في شكل سلسلة على حسابه الفايسبوكي، كان الفارق الزمني بين كتابة الفصل منها وتلقيه من طرف القراء لا يتعدى الساعات، مما ينم عن شغف كبير تولد لدى القراء في متابعته والتفاعل مع كل جديد من فصول الرواية.

لقد تحولت هذه الرواية وقتها ليس فقط إلى نص أدبي ذا صبغة جمالية، ولكن أيضا إلى وسيلة فنية للصمود والمقاومة، ليس في وجه وباء كورونا وحده بل في وجه كل عدو يهدد استقرار المجتمع وينغص عيش أفرادهم ويفسد سلامهم المادي والروحي، لقد جعل الكاتب من "ليليات رمادة" منفذا إلى أرواح القراء لتلقيهم قيمة الحياة، وقبسا من نور يحيي في قلوبهم المتعبة الخائفة شغف الحياة ورهان الكفاح لعيشها بكرامة كما تستحق، وبذلك تتحول الكتابة عنده من وسيلة تواصل إلى وسيلة نفاذ إلى الآخر المتلقي واختراق لعالمه ووجدانه.

3.4 النهايات المتعددة:

مثلما أفسح واسيني لقرائه مساحة للتفاعل مع نصه الروائي، خصّهم كذلك بفرصة للتدخل في صياغة نهاية ملاتمة لهذا النص، مما أنتج مقترحات غنية ومتنوعة من نسج خيال الجمهور وبناء على تصورهم للخاتمة الأنسب لسيرورة الوقائع التي عايشوها في الرواية إبان فترة نشرها الطويلة، تابعها الكاتب واحتفى بها وناقش القراء فيها، وقد كانت جل هذه النهايات متفائلة ورومنسية عكس توجه الروائي الذي قرر وضع نهاية إنسانية واقعية، أقل ما يقال عنها أنها كانت صادمة لجمهوره ومتابعيه، وهي تجربة حاول المؤلف من خلالها خرق أفق التوقع لدى قرائه، وتشويقهم في الوقت ذاته إلى معرفة مصير شخصيات الرواية وعلى رأسهم البطلة "راما".

يقول واسيني واصفا تفاعله مع نهايات القراء المفترضة: «أخذت أتجول بين الألوان والتشكيلات التي أتى بها القراء كاقتراحات لنهاية الرواية، والواقع أنها كانت تجربة كتابية من أجمل ما يكون، تقاطعت نهايتي مع بعض النهايات، لأن مسار الرواية هو الذي حدد بالنسبة لي هذه النهاية، فأنا صاحب النص وهذا خيار، لكنني أشركت معي القراء في التعبير عن وجهات النظر، وكلما كانت تصلني نهاية مقترحة، أضعها على صفحتي ونتناقش حولها، حتى تحولت المسألة إلى "ديناميكية سردية"».¹⁴

تلك السجلات والمحاورات مع جمهور واسيني كانت حتما مفيدة ومثيرة للنص، لكن الأهم من ذلك أن الليليات منحت للكثيرين فرصة كبيرة للكتابة عما كانوا يعانونه بسبب الوباء، وغيره من الظروف القاسية التي تميز نمط الحياة المعاصرة، ولا شك أن أجمل وأقوى لحظة في هذه التجربة الفنية التفاعلية كانت في النهاية، حين اقترح واسيني على القراء الذين رافقوه في هذه التجربة منذ بداية نشر الرواية أن يفترضوا نهاية لها من زاوية نظرهم، ومن ثمة قام بعرض النهايات المقترحة من طرف الجمهور قبل عرضه الليلة الأخيرة/الحلقة الأخيرة من الرواية، وهو ما يذكرنا بنمط النهايات المفتوحة في الروايات التفاعلية.

وكمثال على ذلك، نجتزيء مقتطفاً لأولى النهايات المحتملة للرواية، والتي

كانت من اقتراح الكاتب والناقد التونسي عبد الباقي جريدي، جاء فيها:

«عملت رمادة على جمع ما أمكن من شخصيات روايات واسيني الأعرج، فبعد أن التقت بـ"صالح"... و"مريم" من سيدة المقام، و"فتنة" من شرفات بحر الظلام، و"مي الحسيني"، و"سيكا"، اجتمعوا كلهم في البيت الأندلسي وقرروا الذهاب هذه المرة في رحلة حقيقية... واتجهوا جميعاً نحو باريس... كانت رمادة في حالة تردد وخوف من النهاية المحتومة، خاصة بعد أن أصيبت بنزيف حاد وسقطت على الأرض... دخل الجماعة غرفة الصالون... كان واسيني في حيرة من أمره، كل مرة يوجه نظرة صوب شخصية من شخصياته مثل أب يشاق أن يرى أبناءه، بل أحفاده منذ سنوات، وكانت ابتسامة واضحة على محياه ينتظر من يتكلم».¹⁵

هنا يبدأ النقاش بين الكاتب وشخصياته الروائية الخيالية حول نهاية الليليات، يبادر "صالح" بطل رواية نوار اللوز بالحديث فيقول: «واسيني نحن أبناؤك من ورق وحبر، نتوسط حتى تترك رمادة تواصل العيش بسلام ولا تنهي الليليات، وتترك لها قلما نكتب به الليالي... فأجاب واسيني:... كل طلباتكم مستجابة، لن أكتب خاتمة هذه الرواية سأترك القراء يتكفلون بذلك... وإذا بطرق شديد على الباب... يقف "آدم غريب" على الباب ... وهو يقول: لقد كانت رحلة شاقة في الزمان والمكان، جننكم من قلعة "أميروبا" من سنة 2084م، وأعرف ما حل برمادة، فالرواية منشورة في الأسواق منذ سنوات... فلا تصدقوا واسيني هذه المرة لأنه حالم وليس كاتباً واقعياً... وبدأ (آدم) في قراءة الليلة الثلاثين بصوت مرتفع يسمعه كل من في القاعة».¹⁶

ينقل آدم نهاية الليلة الأخيرة من الليليات على لسان رمادة قائلاً: «... اليوم انتهى كل شيء، لي عمر واحد أهدرته هباء في انتظارك. اصغ لنصيحتي جيداً يا قلبي، ليهذا نبضك في صدري، هكذا هو حال الدنيا، هكذا هو حال الدنيا. ينتهي النص ويبقى معلقاً في انتظار محاولات القراء... الليلة الثلاثون هي ليلة القراء، ولهم أن يتخيلوا ما يريدون أو يتركوا الأحداث مشرعة على المطلق والمفتوح، فأجمل النصوص تلك التي لم تكتمل بعد، أليس أجمل النصوص تلك التي لم يعلن فيها الديك الصباح دون أن تكون قد اكتملت بعد. ماء ولا ارتواء أو ظمأ على ماء مرقوب خير من ارتواء، وهل نرتوي؟»¹⁷

هذه النهاية الفريدة والمبتكرة التي جمع فيها "عبد الباقي جريدي" كل شخصيات "واسيني الأعرج" من مختلف رواياته على مدى أربعين سنة من الكتابة، تعكس في الواقع جهداً لا يستهان به في ابتداء نص سردي بوليفوني، أتاح فيه هذا الناقد لكل أبطال روايات واسيني الكثيرة أن تتدخل، وتعبّر عن رفضها للنهايات المأساوية المفجعة التي اختتمت بها واسيني نصوصه الروائية السابقة، وتبدي تضامنها مع شخصية "رمادة" المفجوعة بالفقد، المحاصرة بالموت والقلق، وهو تصور طريف مؤغل في الخيال، خارج عن المألوف، ولا يخلو من المفارقة والتشويق.

وهو ما دعا واسيني للتعليق على هذه النهاية المتخيلة لرواية ليليات رمادة، مُبدياً سعادته وإعجابه بما كتبه عبد الباقي جريدي: «... اليوم نصل إلى نهاية المشوار، أي إلى الليلة الثلاثين ... في سياق الورشة الروائية التي كبرت وأصبحت شجرة ظليلة بقراء رواد لم يتخلفوا ليلة واحدة عن المتابعة، جاءت فكرة كتابة نهاية افتراضية من طرف كل من يشاء من متابعي ليليات رمادة، قبل يوم الخميس على الساعة السابعة مساء موعد نشر الحلقة الأخيرة من الليليات، صديقي الناقد الحيوي والنشيط أبدا "عبد الباقي جريدي" كان مفتتح هذه التجربة، بنص استضاف فيه كل شخصياتي في محاكمة لطيفة، لا تشبه في شيء محاكمات شخصيات "حنا مينة" للكاتب. لن أتدخل كثيرا في انتظار نهايات افتراضية أخرى من القراء، كل الشكر حبيبي عبد الباقي».¹⁸

لقد كانت اللعبة جميلة وطريفة لأن الجمهور كان في الغالب متفائلا ورومنسيا، حيث افترض عودة الطيبية "رمادة" والموسيقار "شادي" لبعضهما وتتويج علاقتهما بالزواج بعد مرور كل منهما بأزمات نفسية وجسدية، بينما قرر الكاتب وضع نهاية تراجيدية واقعية للقصة حين فقدت رمادة جنينها، وعزمت على نسيان شادي -الذي اتضحت خيانتة لها في النهاية- والمضي قدما في حياتها. لقد كانت نهاية غير منصفة وصادمة للقراء مخالفة لكل توقعاتهم، وهو بالذات ما انتظره القارئ الذي لا يرضى بالعادي المألوف والمتوقع، وهو ما عوّده عليه واسيني الأعرج الذي يثبت من خلال كل تجربة روائية جديدة أن الرواية ملعبة الذي يجيد استغلاله ويدرك مجاهله وأغواره.

في الحلقة 29 من الليليات تم تدمير أفق التوقع لدى قراء رمادة، الذين توجهت تكهناتهم إلى النهاية الرومنسية السعيدة المعهودة في معظم قصص الحب، لكن الذي حدث كان شيئا آخر، مخالفا جذريا لأفق الانتظار، مما يمكن تسميته بـ"ضربة مسرح" (coup de théâtre)، فبدا شادي في الحلقة خائنا بالمعنى العاطفي مع الموسيقية "ماشا"، التي ظلت ترافقه طوال فترة مكوثه في المستشفى الوطني بفيينا، جراء مضاعفات فيروس كورونا، وانتهت به إلى العناية المركزة

وجهاز التنفس الاصطناعي، وكان لابد من التمرين على كتابة نهاية يرونها قراء مناسبة للنص في انتظار نشر النهاية الرسمية للرواية.¹⁹

كانت اللعبة انقلاباً على كل الشخصيات التي أحبوها، وكانت الورشة الافتراضية قد وصلت إلى منتهاها، إذ نشر واسيني كل النهايات المحتملة التي تطوع القراء لكتابتها، لنص تابعوه على مدار أربعة أشهر من بداية الانكفاء (الحجر) إلى نهايته، فأعاد نشر الكاتب للنهاية الرسمية للرواية الاختلالات إلى توازنها الطبيعي، ولا شك أن انفتاح الكاتب على نهايات متنوعة من نسج خيال قرائه، قد أسهم فعليا في تعدد القراءات النقدية وتنويع الرؤى، وقبل كل ذلك تنشيط مخيلة الجمهور ومعرفة مدى تماهيه في حلقات الرواية ومتابعته لتفاصيلها. في النهاية، كان الفراق مع المجموعة التي تفاعلت مع واسيني صعباً جداً على حد وصفه، لكنها لحظات انتصرت فيها الرواية والكتابة والتعليق على الموت المتربص، وكان هذا أهم انتصار.

5. خاتمة:

- تتناسب رواية يوميات رمادة رواية مع الواقع الجديد أو قل هي تكيف مع مستجدات الوضع الصحي الطارئ جراء الوباء، ليس للكاتب وحده بل لجميع المتلقين، الذين تغيرت اهتماماتهم وتوجهت احتياجاتهم نحو كل ما هو افتراضي، للتعويض عن كل ما ينقص الإنسان حين كان ملزماً بالبقاء بين جدران منزله إبان فترة الحجر المنزلي، إنها واحدة من الأعمال السبّاقة عربياً إلى الاستثمار إبداعياً في وباء كورونا، وما ترتب عنه من تحولات في النفسيات والذهنيات والسلوكيات، على مستوى الفرد والمجتمع والعالم بأسره.

- لقد أطل علينا واسيني الأعرج بهذا العمل الاستثنائي في ظروف استثنائية، دعا قراءه من خلاله إلى الانخراط في هذه التجربة الفنية، ومرافقته لعيش ميلاد رواية يكونون طرفاً فيها وشركاء معه في إنجازها بشكل من الأشكال، ليتحول النقاش والملاحظات والتعليقات التي بادروا بها لإثراء الورشة الكتابية إلى محاورات أدبية حقيقية بمستويات مختلفة، وتحول المشروع من فضاء لتشارك هموم الحياة وتجاوز

محنة وباء كوفيد19، إلى منصة نقاشية وورشة روائية بامتياز، عاشها المتابعون - من نقاد محترمين وأكاديميين وقراء شغوفين بالقراءة- بشكل جميل وعميق، منغمسين في الممارسة الإبداعية قراءة ونقدا وتعليقا.

- ليليات رمادة هي حالة فنية خاصة، هي نص تتلاطم فيه أمواج البواء والتطرف، والفساد والعنف، وتتفكك فيه الأواصر الأسرية، وهي ورشة ثقافية ومحاورة كثيفة وموسعة شارك فيها القراء بمختلف جنسياتهم العربية، إذ مكن خلالها واسيني القارئ من الإسهام في الحكي ضمنا، فتدخل بآرائه وتعليقاته في كل تفاصيل النص وصولا إلى الخاتمة، التي حظي فيها بفرصة الإبداع والتخيل لصياغة نهاية مناسبة لأحداث الرواية، ومن ثمة تحول هذا القارئ إلى مبدع، ما أنتج تعليقات عميقة وواعية طورت آليات الكتابة الإبداعية وعمقت التجارب، وساهمت ولا شك في الارتقاء بذوق القارئ العربي، وفي تقريب المبدع واسيني الأعرج من متابعيه، ما منحه رؤية جديدة ومختلفة حول الإبداع الروائي بمختلف تقنياته ومستوياته. وكنتيجة لهذا التداخل والتفاعل في خضم هذه التجربة النادرة، جعلنا الكاتب نؤمن بأن الحكي، مهما اختلفت طرائقه، يستطيع التغلب على الموت ويبقى وسيلة للمقاومة والصمود.

5. المراجع:

- 1- ينظر: طارق زيناوي، إشكالية الأدب الرقمي، قراءة في الوسائط التواصلية، مجلة المدونة، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية، كلية الآداب واللغات، جامعة البليدة2، الجزائر، المجلد الرابع، العدد الثاني، ديسمبر 2019، ص491.
- 2- ينظر: عرجون الباتول، مدخل إلى الأدب العربي التفاعلي الجديد، مداخلة ضمن كتاب المحتوى الرقمي باللغة العربية: النشر الإلكتروني، مداخلات أشغال ندوة النشر الإلكتروني، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، عدد خاص، 2014، ص50، 51.
- 3- ينظر: المرجع نفسه، ص54.
- 4- ينظر: حسين دحو، النص الرقمي في الأدب العربي من الورقية إلى الرقمنة، وجه آخر لما بعد الحداثة، مجلة الأثر، العدد 29، ص111.
- 5- فاطمة البريكي، مدخل إلى الأدب التفاعلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2006، ص112.

6- ينظر: سعيد يقطين، من النص إل النص المترابط: مدخل إلى جماليات الأدب التفاعلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2005، ص197.

7- واسيني الأعرج، في حوار بعنوان: "إلييات رمادة" محاولة لتجاوز الواقع، حاورته شيرين ماهر بتاريخ 07 يوليو 2021، مجلة الدوحة، وزارة الثقافة، قطر، تمت زيارته بتاريخ 04 جون 2023، على

الرابط:

<https://www.dohamagazine.qa/%D9%88%D8%A7%D8%B3%D9%8A%D9%86%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B9%D8%B1%D8%AC-%D9%84%D9%8A%D9%84%D9%8A%D9%91%D8%A7%D8%AA-%D8%B1%D9%85%D8%A7%D8%AF%D8%A9-%D9%85%D8%AD%D8%A7%D9%88%D9%84%D8%A9> تمت زيارته بتاريخ 8 جوان 2023.

8- واسيني الأعرج، في حوار: "إلييات رمادة" محاولة لتجاوز الواقع، مرجع سابق.

9- ينظر صفحة الفيسبوك الخاصة بالكاتب واسيني الأعرج على

الرابط:

https://m.facebook.com/story.php?story_fbid=2608630282731936&id=1668652466729727

10- ينظر: محمد تحريشي، القارئ الافتراضي تجربة في الإبداع والنقد، دكتور وأكاديمي من جامعة بشار، ينظر

الرابط:

https://m.facebook.com/story.php?story_fbid=10157082979587397&id=718942396

11- ينظر: واسيني الأعرج، في حوار بعنوان: واسيني الأعرج: "إلييات رمادة" محاولة لتجاوز الواقع، مرجع سابق.

12- ينظر: محمد تحريشي، القارئ الافتراضي تجربة في الإبداع والنقد، مرجع سابق.

13- رحمة الله أوريسي، أدب العزلة بين سلطة التخيل والتجريب في رواية ليلييات رمادة، لواسيني الأعرج، مجلة اللغة، الكتاب السابع، العدد الثاني، ديسمبر 2022، مجلة إلكترونية على الرابط: <https://allugah.com/?p=823>

14- واسيني الأعرج، في حوار بعنوان: واسيني الأعرج: "ليليات رمادة" محاولة لتجاوز الواقع، مرجع سابق.

15- عبد الباقي جريدي، نص النهاية المحتملة رقم 1، منشور على صفحة فيسبوك الكاتب واسيني الأعرج، بتاريخ 30 جوان 2020، على الرابط:

https://m.facebook.com/story.php?story_fbid=10157046988847397&id=718942396 تمت زيارته بتاريخ 21 ماي 2023.

16- عبد الباقي جريدي، نص النهاية المحتملة رقم 1، مرجع سابق.

17- عبد الباقي جريدي، نص النهاية المحتملة رقم 1، مرجع سابق.

18- واسيني الأعرج في تعليقه على نص النهاية المفترضة للرواية لعبد الباقي جريدي، منشور على صفحة الفيسبوك الخاصة بواسيني ، بتاريخ 30 جوان 2020 على الرابط:

https://m.facebook.com/story.php?story_fbid=10157046988847397&id=718942396 تمت زيارته بتاريخ 21 ماي 2023.

19- ينظر: واسيني الأعرج في حوار بعنوان: ليليات رمادة ثمرة كفاحي ضد كوفيد19، حاورته لطيفة داريب، يومية المساء الجزائرية، نشر بتاريخ 17 جانفي 2021 على الرابط:

<https://www.el-massa.com/dz/%D8%A7%D9%84%D8%AB%D9%82%D8%A7%D9%81%D8%A9/%E2%80%9D%D9%84%D9%8A%D9%84%D9%8A%D8%A7%D8%AA-%D8%B1%D9%85%D8%A7%D8%AF%D8%A9%E2%80%9D-%D8%AB%D9%85%D8%B1%D8%A9-%D9%83%D9%81%D8%A7%D8%AD%D9%8A-%D8%B6%D8%AF-%E2%80%9D%D9%83%D9%88%D9%81%D9%8A%D8%AF19%E2%80%9D> تمت زيارته بتاريخ 18 جوان 2023.